الباب الرابع عشر

في آراء علماء العصر في الغزالي

تمهيد

لا يوجد هذا الباب في النسخة التي قدمت للجامعة المصرية، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان، تتميما للسلسلة التاريخية، التي أردت أن أبين بها قيمة الغزالي في مختلف العصور.

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم في الغزالي بجرأة وصراحة. وحجتهم في ذلك أن الرأي العام لا يقبل في الغزالي غير المدح الخالص، وللغزالي كسائر المؤلفين حسنات وسيئات، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئا من سيئاته في العلانية، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد، وإلا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء!

وإذا كانت الخطة التي جريت عليها في نقد الغزالي تقضي عليَّ بنشر ما له وما عليه، عملا بالنزاهة العلمية، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالي وخصومه في هذا العصر، وأدونها كما هي بلا زيادة ولا نقص، معتمدا في ذلك على محادثات خاصة دارت بيني وبينهم، وعلى سند كتابي فيما يتعلق برأي حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار. وأنا أشكر هذين الأستاذين بصفة خاصة: لأني لم أر من غيرهما جرأة على

التقدم بشيء مكتوب، وأعذر من أحجم عن الكتابة، لأن الضجة التي قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم: أن حرية الفكر في مصر لا ظهير لها ولا نصير.

-١-

رأي الدكتور منصور فهمي

الدكتور منصور علم من أعلام هذا العصر، وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدر لأمثاله عادة من الظلم والاضطهاد. فَصَلَتْهُ الجامعة في سنة ١٩١٣ مجاراة للجمهور الذي غضب وثار بسبب ما شاع إذ ذاك من أنه رمى النبي عليه الصلاة والسلام بحب الشهوات. وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين، فنصحه يومئذ بأن يصلي الجمعة في الأزهر ليكون في ذلك قطع لألسنة المرجفين وليستطيع دولته أن يرجعه إلى الجامعة، ويصل من عمله ما انقطع، ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالإيمان؛ لأن الله على إيمانه شهيد، فشكر لسعد باشا رفقه به، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين. ثم رجع إليها عالي الرأس في سنة ١٩٢١.

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالي نال بها الدكتوراه من جامعة باريس، فلرأيه في الغزالي قيمة خاصة، وهو لا يعد خصما للغزالي ولا نصيرا له وإنما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات.

-٢-

رأي الشيخ علي عبد الرازق

الأستاذ الشيخ علي عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر، وقد تلقينا عنه دروس الأدب والبيان في الأزهر منذ اثني عشر عاما، وأماليه في علم البيان دليل على عقليته النادرة. ولو مضى في التأليف لأصبح قليل الأمثال.

وقد درس الغزالي بعناية، وهو يقف إزاءه موقف الحياد. ويقرر أن الغزالي أوجد حركة فكرية في العالم الإسلامي. أما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الأنظار، فمن الناس من يراها ضارة ومنهم من يراها نافعة، ولا يزالون مختلفين.

-٣-

رأي الشيخ يوسف الدجوي

الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي عالم من هيئة كبار العلماء، وهو ذو نفوذ كبير في الأزهر والمعاهد الدينية، وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلامذته. ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته، لأنها مع قلتها ضعيفة، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله في دروسه الخاصة وبين ما يدونه في تلك المصنفات، إذ كان يريد أن يصل بكتبه إلى إفهام الجماهير، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية. ورسالته الصغيرة في تفسير قوله تعالى: (لا يسئل عما يفعل)[1] تجعلنا نأسف كثيرا على هجره لهذا الأسلوب البديع، وإقباله على خطة الترغيب والترهيب، التي تذكرنا بكتاب الإحياء.

---

[1] سورة الأنبياء: ٢٣.

ويكاد يعد الشيخ الدجوي خليفة للغزالي في هذا العصر، ففيه تقريبا كل خصائصه، من القدرة، والإخلاص، وقوة النفوذ، وبعض الفلسفة، والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من الحدود.

-٤-

رأي الأستاذ جاد المولى

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر. تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثاني، فسافر في أول بعثة أرسلها دولة سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف في سنة ١٩٠٧ فقضى ثلاث سنين في الكلية الجامعة بمدينة ردنج. ثم عين في سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وقضى بها ثلاث سنين. ثم عاد في سنة ١٩١٣ فعين في قلم الترجمة بوزارة الأشغال فقضى بها ثلاث سنين. وفي سنة ١٩١٦ نقل إلى الديوان العالي، وظل في خدمة الملك إلى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية.

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الأستاذ عبده خير الدين ليشتركا في الامتحان الذي تقدمت له في الجامعة المصرية. ويذكر الجمهور أن الأستاذ جاد المولى بك كان يتأجج غيرة على الغزالي، وقد ناقشني بشدة في كل الموضوعات التي خالفت فيها الغزالي. فبدا لي بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالي من جديد، فتوجهت إلى منزله لهذه الغاية، فتفضل وأطلعني على المحاضرات التي كان ألقاها عن الغزالي في سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثير من الفلاسفة المحدَثين منهم والقدماء.

والأستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالي في نشره وإذاعته. وقد كان الأستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثني عن ذلك بما كتبه الأستاذ الغمراوي بك في كتاب الغرائز

ويقول: إن الصوفي هو كالمعلم سواء بسواء، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة، وتوجيه الغرائز الحسنة إلى النواحي النافعة، كذلك يجب على الصوفي أن يراقب حركات المريدين. لأن التصوف ليس إلا رياضة للنفوس.

وبالرغم من عناية الغزالي بالتصوف، فإن الأستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين وقد سألته عن معنى هذا التجديد، فقرر أنه يريد به النهوض بالأفكار الإسلامية التي آمن بها الغزالي، والتي كاد يقضي عليها تيار الفلسفة إذ ذاك.

-٥-

رأي الشيخ عبد العزيز جاويش

والأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش إمام من أئمة المسلمين في هذا العصر. وهو معروف في جميع الأقطار الإسلامية، وله أبحاث في فلسفة التشريع تعز على من رامها وتطول، وقد استفاد من النفي والاضطهاد أيما استفادة، ووقف بذلك على كثير من عقليات الأمم والشعوب، وعده الإنكليز من بين أعدائهم الألداء في الحرب العالمية. ولقبوه بالرجل الخطر المخيف.

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالي. فهو أولا يؤمن بقوة الغزالي ومتانته، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه إلى منزلة المجتهد المطلق، مع أنه كان «جاهلا» بفن الحديث. ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالي بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمته العلمية، ولن ينفعه بعد ذلك ذيوع اسمه في العالمين. ويقرر الشيخ جاويش أن الغزالي متناقض، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف في الكتاب الواحد، ولأنه لم ينكر شيئا إلا وقد قال به في بعض أحواله.

-٦-

رأي الكونت دي جالارزا

ظل الكونت دي جالارزا أستاذا للفلسفة في الجامعة المصرية ست سنين، وهي نادرة النوادر في كرم الأخلاق. وله مؤلفات في الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض، وعذره في ذلك أنه أجنبي عن اللغة العربية.

وهو من أشد أنصار الغزالي، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيرا بوجهته الروحية وله على الغزالي مأخذ واحد وهو منعه الناس من ورود مناهل العلم، مع أنه لم يمنع نفسه شيئا من العلوم. ويرى أن الغزالي حرم بذلك من كانوا أهلا للاستفادة، وإن كان عصم من ليسوا أهلا للانتفاع، من سواد الناس. والغزالي في رأيه غاية الغايات في الإخلاص.

-٧-

رأي الدكتور العناني

الدكتور علي العناني من كبار الأساتذة في هذا العصر، وقد مكث في ألمانيا نحو عشر سنين، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة، وهو من أساتذة الجامعة المصرية.

والدكتور العناني ينظر إلى الغزالي نظرة خاصة، من حيث تطور الفكر الإسلامي فهو يرى أن الفكرة الإسلامية كانت تعتمد أولا على الوحي، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح، ولكنه ما زال يقوى وينمو حتى كاد يستقل عن الوحي استقلالا تاما، فرأى الغزالي أن يقف في وجه هذا الاستقلال، فأخذ يحارب الفلاسفة

ويناضلهم حتى أخمل ذكرهم في الشرق، وبذلك انتقلت الفلسفة إلى الأندلس، ووجدت هناك مرعاها الخصيب.

والدكتور العناني يرى أن الغزالي سلك تلك السبيل خضوعا للرأي العام في البداية، ولكنه تأثر بما دعا إليه في النهاية، وعاد حربا للعقل، وسلاما للمبادئ الروحية. وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه إلى ظاهر الشريعة، فإن الرجل كان أُخِذَ أَخْذًا بمذاهب الصوفية، وإن كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس.

-٨-

رأي الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر، فقد يندر أن يفوته شيء من معارف هذا الجيل. وهو أعرف الناس بروح العرب والإسلام. وقد درس الغزالي دراسة جيدة. وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارئ في الهوامش، وهي ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء. وقد قابلته أخيرا فذكر لي أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالي من تحريم الغناء في أكثر الأحيان، وهو يرى أن الغزالي محق فيما يقرر من الاكتفاء بإباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم. لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال.

ورأي الشيخ النجار في الغزالي رأي وسط: فهو يرى أنه في جلته لا نظير له، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة، لأن الرجل كان ينظر إلى الأشياء من جهات متعددة، وكان لسنه في ذلك أكبر تأثير. وينكر عليه المبالغة في متابعة الصوفية، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعا مربعة تصلح للترقيع ويقول: هذا الفقير إما أن يكون في حالة صحو أو في حالة ذهول: فإن كان ذاهلا فهو

معذور، ولا حكم له، وإن كان صاحيا فهو عابث، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحا لأن يرقع به سواه؟ إن هذا إلا إتلاف!

-٩-

رأي الشيخ حسين والي

الأستاذ الشيخ حسين والي من كبار العلماء ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذي ظهر منذ سنين، ولولا أنه شغل بالإدارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم في بسط آراء المتقدمين في الأصول والتوحيد والأخلاق.

ويعد الشيخ حسين والي من أشد أنصار الغزالي، فهو يدافع عن وجهته في التصوف لأن التصوف في رأيه لا يخرج عن الأصول الإسلامية، والغلو الذي نراه في الإحياء ليس إلا تمكينا للمعاني التي يدعو إليها الغزالي. وهو لا يرى أن الغزالي قصد بمؤلفاته فئة من الناس، وإنما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده، وبقدر ما يصلح له من أنواع الحلال. والغزالي عنده معذور فيما وقع له من ضعيف الحديث. لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره فيما اتفق له في الأحاديث والأخبار والآثار. ومن البعيد أن يضع حديثا في كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف، مع ما عرف عنه من الأمانة والإخلاص.

-١٠-

رأي الشيخ عبد الباقي سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقي سرور من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين المعقول والمنقول وكتابه عن «ماضي الإسلام وحاضره» الذي نشره في جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون في العهد الأخير. ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه، فهو

لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية، وأعلمهم بما يجري في عالم السياسة، والفلسفة والاجتماع. وهو فوق ذلك أغير الناس على وطنه ودينه، وإنه لعلى خلق عظيم.

ويرى الشيخ عبد الباقي أنه ليس للغزالي مذهب خاص، وإنما يتنوع دفاعه بتنوع الرأي الذي يدافع عنه، وهذا منشأ ما في كتبه من تباين الآراء: فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية، وهو يناقش الفلاسفة، ويريد أن يجمع في يده كل الأسلحة الفكرية ليدفع بها طغيان الفلسفة الذي كان يخشى على الدين من تياره. والشيخ عبد الباقي يرى أن التصوف في كتب الغزالي إنما كتب للصوفية، لا لجميع الناس، كما يظن ذلك كثير من الباحثين. ودليل هذا رجوعه في أخريات أيامه إلى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون أنه مات والبخاري على صدره. ولعدم اختصاص الغزالي بمذهب خاص وجهة شريفة، هي تحري الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لعهده من مختلف المذاهب. وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية التي تغل حرية الفكر، وتحرم الباحث من الانتفاع بثمرات العقول.

-١١-

رأي الشيخ أحمد أمين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع، فإن كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة، التي تغرس الحياة في نفس المستفيد. وعمله في لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذي يعرف أن لا حياة لأمته بغير العلم، ولهذه اللجنة أثر كبير في الحركة العلمية، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل.

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالي حوَّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة، ورجعهم إلى الكتاب والسنة، وأعلى شأن التصوف والصوفية. وحبب ذلك إلى

الناس. وأسلوبه في الترغيب والترهيب أنفع الأساليب في هداية الجماهير. ويرى معنا أن الغزالي لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه. وأن آراءه في الأخلاق لا تنفع في هذه الأيام، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع، وهو يفضل السلامة على كل شيء!

obeikandl.com

خاتمة الكتاب

الآن، وقد قدمنا للقارئ ما وفقنا إليه في درس الأخلاق عند الغزالي، نوصيه بأن يرجع -إن شاء- إلى كتاب الإحياء، وكتاب الميزان، وكتاب المنهاج، وكتاب المستصفى، وإلى المصادر الأجنبية التي ذكرناها في غير هذا المكان، وإلى كل ما يستطيع الوصول إليه مما يتعلق بالغزالي، ليعرف صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام.

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة في نقد الغزالي، ولكنا نرجو أن يتنبه القارئ أيضا إلى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته. ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب، أننا لم نكتب لإرضائهم أو إغضابهم، وإنما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة، هي خدمة العلم والتاريخ، خدمة خالصة لوجه الله، لا للناس.

وأحب أن أسجل هنا كذلك، أني ترددت فيما نصحني به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التي ثار من أجلها الخلاف، فلم أرفع منها شيئا، وإنما أضفت إليها بعض البيان، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية، وإنما أنا وحدي المسئول.

أما بعد فإني أسأل الله أن يجزيني بفضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهود، وإليه وحده أرفع الرجاء، فقد مُنِيَ الناس بالجحود، ونكران الجميل.

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد)[١].

الإسلام والأخلاق [٢]

يقول المرجفون: إني قررت أن الدين الإسلامي دين فتح لا دين أخلاق. ولولا ضعف ملكة النقد في مصر، لما شاعت هذه الأكذوبة، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول. فليس من الجائز أن رجلا مثلي قضى في الأزهر خمسة عشر عاما يحكم بين الجماهير في دار الجامعة المصرية بأن الدين الإسلامي ليس دين أخلاق، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل.

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التي تناقلها الناس، ليعلموا إلى أي حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث!

قلت في رسالتي: «إن ما كتبه الغزالي عن التوكل صريح في الدعوة إلى الرهبنة، وقطع العلائق مع الناس، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق» فلما سألني حضرات الأساتذة الممتحنين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالي، قدمت لهم قوله: «فإن قلت: فما قولك في القعود في البلد بغير كسب: أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه، حتى يكون

---

[١] سورة آل عمران: ١٩٣ – ١٩٤.

[٢] نشرت هذه الكلمة في المقطم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤.

فعله حراما، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق. ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له. ولكن ليس فعله حراما إلى أن يشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب».

وهنا لا أكتم القارئ أني حملت على الغزالي حملة شديدة ورميته بجهل أسرار الدين، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته: إذ يدعوه إلى أن لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق، وإلى أن لا يحزن إذا سرق متاعه بل يفرح إذا أمكنه، وإلى أن لا يدعو على السارق، الذي ظلمه بالأخذ، فإن فعل بطل توكله ودل على تأسفه على ما فات، ويدعوه إلى أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله. ويشكر الله إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما!

ثم قلت في التعليق على هذه الآداب الميتة: «وما أدري ما الذي أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا وأن يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح وجميل: من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب، بل مجزي بما مكن صاحبه من صنع المعروف»!

عند ذلك تذمر الحاضرون من العلماء، وقال فضيلة الشيخ اللبان: لا عيب على الغزالي في ذلك لأن الدين الإسلامي دين أخلاق، فقلت: وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك، وليس من الأخلاق في شيء أن يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق، فهل جانبت في ذلك الصواب؟

والظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب، والاعتداء على الشعوب. كلا يا هؤلاء! الدين الإسلامي دين فتح، رضيتم أم كرهتم، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف، وأنتم حين تنفرون من كلمة «الفتح» إنما تجارون الأجانب الذين يترددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضا بالقليل. وهذا خطأ صراح، فإن الدين الإسلامي أبعد الأديان عن الزهادة، وأبغضها للخمول، ولا حرج على الإسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم، فإن هذا أمل نبيل، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية، أو ملة قوية، وضعت حدا لمطامعها في الحياة، وإنما ترغم الأمم الضعيفة، أو الملل الضعيفة، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود!

ستقولون: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان، بل أمروهم بالرفق بهم، والإبقاء عليهم، كما أمروهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول. وأقول لكم: إن هذه المعاملة لا تدل على أن الإسلام ليس دين فتح، ولكنها تدل على أن الإسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بإرهاق النفوس وتنفير القلوب. وهذه الملاينة، وذلك الرفق، من الأسلحة الماضية في استلال السخائم، والتبشير بالدين الجديد. وكذلك دعا النبي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل خصومه بالتي هي أحسن، حتى ظفر بالفتح المبين.

هذا ما أريد من أن الإسلام دين فتح وامتلاك. ولو بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم، ورأى ما أنتم عليه من قلة وذلة، لبلل رداءه بدموعه، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيبا. أفتحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) معناه أنه جاء لينشر علينا، ويذيع فينا، تلك

المبادئ السقيمة، التي دافع عنها الغزالي وأمثاله، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول، وتابعهم في ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل، في غير خجل ولا استحياء؟

أنا لا أنكر أن التوكل فضيلة، ولكن أنكر أن يكون معناه الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق، وإنما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمدا على الله (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)[1] والصبر فضيلة. ولكن على أن يكون صبرا على الجهاد لا صبرا على الضيم. والخمول فضيلة. ولكن على معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا. فأما ما نقل الغزالي من أن بعض العلماء كان يترك الدرس إذا زاد الطلبة على ثلاثة إيثارا للخمول، فهي خطة سلبية، وهروب من الواجب، تعالت الأخلاق عما يصفون!

ومن العجيب أن نجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبي وخلفائه، وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبي وخلفائه فضيلة قضت بها الضرورة، وها نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير إلى ما يملك رؤساء الحكومات نظر المحقق المغيظ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب الخلق العظيم إلى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام الأمور. ولو قضت الظروف إذ ذاك بأن يكون النبي فردا من جماعة يسوسها غيره، لرأيناه ينمي ثروته، ويسعى جادا في استغلال ما يملك من أرض أو مال ... على أني أعلم من سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يدل على أنه كان ينظر إلى الدنيا بعين ملؤها الحب والإعزاز، وحسبنا أن نتلو قول أصدق القائلين: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[2]

---

[1] سورة المائدة: ٢٣.

[2] سورة البقرة: ٢٠١.

فهل ترونه قال: آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنتين أو حسنات؟! أو ليس من جلال الدنيا أن تسوى بالآخرة؟

من أجل هذا ترونني أنكر أن تكون «الأخلاق» في الإسلام معناها الرضا بالموجود وإن قل وهان، ومن أجل هذا عارضت الغزالي بعد ما عاشرته في مؤلفاته بضع سنين؛ فماذا تنقمون مني بعد هذا البيان؟

obeikandl.com

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب إلى عربية وفرنسوية. أما المصادر العربية فأهمها مؤلفات الغزالي، وهي: إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، والأربعين في أصول الدين، وميزان العمل، وجواهر القرآن، والأدب في الدين، ومشكاة الأنوار، ونصيحة الملوك، والمنقذ من الضلال، وإلجام العوام، وخلاصة التصانيف، ورسالة الطير، وكيمياء السعادة، ومكاشفة القلوب، وقواعد الطريق العشرة، والإملاء على ما أشكل من الإحياء، والكشف والتبيين والقسطاس المستقيم، ومقاصد الفلاسفة، والتفرقة بين الإسلام والزندقة، والدرة الفاخرة، والمستصفى في الأصول.

ومما يتعلق بالغزالي من المصادر العربية: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، وشرح الإحياء للزبيدي وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والرسالة القشيرية، ومجلة الهلال، والسعادة لابن مسكويه، وتهذيب الأخلاق له وفلسفة ابن رشد لفرح أنطون، والذخيرة في المحاكمة بين تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي، وحياة الغزالي للدكتور زويمر، وفتاوى ابن تيمية، وإعلام الموقعين لابن القيم، وفصل المقام لابن رشد، ومحاضرات الكونت دي جالارزا في الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ و١٩٢٠ ومبادئ الفلسفة تعريب أحمد أمين، والملل والنحل للشهرستاني ومعجم البلدان لياقوت.

أهم المصادر الفرنسية:

Gazali, par Cara de Vaux

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher.

Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier,

Encyclopédie de l'Islam (20éme livre).

Histoire de la philosophie, par Paul Janet,

Cours de philosophie, par E. Boirac

Averroës, par E. Renan.

obeikandl.com